دعوة حركات الإصلاح السلفى

بدأت هذه الدعوة ، فى العصر الحديث ، بالدعوة التى قام بها محمد بن عبد الوهاب فى نجد وأطلق عليها اسم الحركة الوهابية .

إذا كنا قد استعملنا كلمة وهابية فى هذا المقال فليس معنى ذلك أن الكلمة تدل دلالة صحيحة على حركة الإصلاح الدينى التى قامت فى الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر . والحق أنها كلمة أطلقها الخصوم على هذه الحركة ليشعروا بأنها مذهب جديد من المذاهب الدينية فكما تنسب الطرق الصوفية مثلا إلى أسماء مؤسسيها نسب الخصوم مجموعة الآراء التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب إلى اسم والده .

أما أنصار الدعوة فى بلاد العرب وخارجها فيرفضون هذه التسمية ويؤثرون أن يسموا أنفسهم بالموحدين أو بالمسلمين ، تمييزاً بينهم وبين من لا يؤمن بمبادئهم التى هى فى رأيهم مبادىء الإسلام الأولى الصحيحة . وكان هذا فى الفترة الأولى من تاريخهم التى تميزت بالتشدد. أما الآن فيطلقون على أنفسهم كلمة السلفيين كما يؤكد ذلك صراحة ، قانون الحجاز الصادر سنة ١٩٢٦ أى عند ضم هذا الإقليم إلى الحكم السعودى ، فهو ينص على أن مذهب الدولة الرسمى هو المذهب السلفى .

وليست المبادىء الدينية التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب جديدة فى تاريخ الفكر الإسلامى ، فكلنا يعرف — ويعترف بذلك علماء نجد أنفسهم — أنه استقاها من أحد مشاهير الحنابلة تقى الدين بن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وتلميذه ابن قيم الجوزية . والجدير بالبحث هو كيف انتقلت هذه الأفكار إلى بلاد نجد المنعزلة عن العالم الإسلامى وبعد انقضاء فترة طويلة تبلغ نحو

أربعة قرون على موت هذين العالمين . خاصة وأن تيارات مضاده لتعاليمهما سيطرت على الحياة العقلية الإسلامية طوال هذه الفترة . وأهم هذه التيارات بلا شك هى :

أولا : الطرق الصوفية وما أحدثته فى المجتمع الإسلامى من تقاليد وأفكار تبعد كل البعد عن حياة المسلمين فى عصورهم الأولى .

ثانيا : جمود الدراسات الدينية حتى تحولت إلى مجرد جمع أحكام المتأخرين فى كل مذهب وهى أحكام بنيت فى الغالب على الاستنباط دون محاولة ردها إلى نصوص من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، وأن كان هذا لا يعنى بالضرورة تعارض الأحكام مع النصوص وإنما يصر السلفيون على أن يطمئن كل قاض إلى سلامة حكمه من الناحية الدينية .

على أن غموض تاريخ نجد فى الفترة السابقة لدعوة ابن عبد الوهاب قد يجعل من الصعب إيجاد الحلقة ما بين ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب . ولكن بتدقيق النظر فى تاريخ عثمان بن بشر ، أشهر[1] مؤرخى الدولة السعودية الأولى ، نستطيع أن نستنتج أن مذهب الحنابلة كان هو المذهب الغالب فى بلاد نجد منذ القرن العاشر الهجرى ، فى الوقت الذى كان فيه هذا المذهب ضعيفاً فى جميع الأقطار الإسلامية الأخرى . وهكذا كان قضاة الإمارات الصغيرة المتعددة فى نجد ينتمون إلى مذهب ابن حنبل ، كما أن كتب التراجم لا تذكر عالما حنبليا فى القاهرة أو دمشق دون أن نجد من بين أساتذته أو تلاميذه أحد النجديين .

ولكن هذا يكفى لتفسير ذيوع تعاليم بن تيمية بالذات فى نجد فى القرن الثامن عشر ، ففى هذا العصر كان التيار العام الواقع تحت تأثير المتصوفة قد جرف الفقهاء الحنابلة فنجد أنهم أهملوا مؤلفات ابن تيمية وعكفوا على الكتب المدرسية مثل كتاب (منتهى الايرادات) فى الفقه الحنبلى وانخرط

---

(١) اسم هذا التاريخ عنوان المجد فى تاريخ نجد وقد نشر بمكة سنة ١٣٠٢ فى مجلدين .

كثير منهم فى الطرق الصوفية المنتشرة حينئذ . وقد استطعنا رغم هذا أن نستدل على أن حنابلة نجد ظلوا محتفظين بنزعة ابن تيمية إلى تطهير العقيدة من المحدثات بدليل ظهور فقهاء من بينهم مثل عثمان بن أحمد النجدى المتوفى سنة ١٠٩٦ هجرية تركوا بعض المؤلفات التى تنم عن هذه النزعة . ونذكر على سبيل المثال من مؤلفات عثمان النجدى كتاب (التوحيد المنتخب من فتح البارى[٢]) . وكتاب (نجاة الخلف فى اعتقاد السلف) وأن كان هذا الأخير قد فقد إلا أن عنوانه له مغزى واضح . ويبدو أن هذه النزعة كانت منتشرة فى بلاد العرب بصفة عامة . فقبيل ظهور محمد بن عبد الوهاب نجد أحد الشوافع فى صنعاء واسمه اسماعيل الصنعانى يؤلف كتاب « تطهير الإعتقاد » وهو يتفق تماما مع تعاليم محمد بن عبد الوهاب الذى حاول الاتصال به .

من هو مؤسس الدعوة الوهابية :

ولد محمد بن عبد الوهاب فى إحدى واحات نجد الوسطى وهى واحة العيينة الواقعة فى أقليم العارض سنة ١١١٥ هجرية أو سنة ١٧٠٣ م . وكما هى العادة فى ذلك الوقت وجه الابن إلى نفس الميدان الذى يعمل فيه والده الذى كان يشغل منصب قاضى الواحة . وجل معلوماتنا عن حياة محمد بن عبد الوهاب مستقاة من مؤلفات أتباعه وخاصة تلميذه حسين بن غنام النجدى . صاحب كتاب (روضة الأفكار والافهام فى تاريخ أحوال الامام وتعداد غزوات ذوى الإسلام) وقد نشر هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٤٩ ويقع فى مجلدين .

ولذلك فان المتتبع لسيرة « الشيخ » يلاحظ أن أنصاره حاولوا أن يوجدوا شبها بينها وبين سيرة النبي ؛ فهو قد أظهر ذكاء غير عادى منذ طفولته الأولى فرحل إلى المدينة لطلب العلم فى سن الثانية عشرة وما

---

(٢) هذا الكتاب مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٩٢٩ (علم الكلام) .

لبث أن بزّ أساتذته هناك ، فاستانف الرحلة إلى البصرة حيث لم يشتهر بالتفوق العلمى فحسب ، بل بجرأته فى نشر مبادئه التى بدأت تختمر فى ذهنه ، فأخذ يهاجم رجال الطرق ومشايخ الشيعة الموجودين بالبصرة مما أدى إلى وقوع بعض حوادث الشغب ، فطرده الوالى العثمانى من المدينة ، وفى طريق عودته إلى نجد كاد يهلك فى الطريق لولا أن وقع ما يشبه المعجزة إذ وجده أحد المارة ، فحمله على دابته وسقاه الماء بعد أن كاد يموت عطشا .

وفى واحة العيينة عاد الشيخ يظهر دعوته فى نشاط أوسع ، فجمع حوله عدداً من الأنصار ، أخذ يتزايد إلى حد أخاف حاكم الواحة الذى كان فى نفس الوقت أمير الأحساء . ويطرد الشيخ مرة أخرى فى سبيل دعوته وتحدث له معجزة تذكر بحوادث هجرة النبى من مكة إلى المدينة . فقد أرسل حاكم العيينة من يتتبع الشيخ لقتله ، ولكنه حين هم بتنفيذ خطته أراه الله منظراً مخيفا جعله يرد السيف إلى جرابه . وهكذا وصل محمد بن عبدالوهاب سالما إلى واحة الدرعيه . حيث قيض له أن يعيش طويلا إلى سنة ١٧٩٢ ، ويرى بنفسه انتشار دعوته فى أقليم نجد بأسره وأن كان الدور الأول فى نشر الدعوة قد أنتقل من يده إلى يد الأسرة الحاكمة فى الدرعية اسرة آل سعود وتحولت أهميتها من الجانب الدينى إلى الجانب السياسى .

ورغم هذا التحول فان المؤرخين يخلطون دائما بين تاريخ محمد بن عبد الوهاب والتطور السياسى والعسكرى للدولة السعودية الأولى وقد نتج عن هذا الخلط أن وصف بعض المؤرخين ، وخاصة المستشرقين ، الدولة السعودية الأولى خطأ بأنها دوله ثيقراطية وفى رأيى أن السعوديين — وإن كانوا قد أهتموا فعلا بنشر دعوة الإصلاح الدينى إلا أنهم لم يكونوا فى يوم ما خاضعين لسلطة القائمين بها . كما أن الدولة الثيقراطية فى النظام القديم تعتمد على منح صفة القداسة للرجال القائمين بالحكم ، ومن الواضح أنه لم يدّع هذه الصفة لا محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه ولا آل سعود أو خلفاؤهم . وكل ما يميز الدولة السعودية عن غيرها من الدول الإسلامية القائمة

فى العصور المتأخرة هو أنها تبرر وجودها برغبتها فى تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا كاملا ، وهى سياسة مستمدة من طبيعة الإسلام نفسه .

ورغم أن مناصب القضاء والإفتاء فى المملكة السعودية ظلت فى الغالب بين أيدى أحفاد محمد بن عبد الوهاب إلا أن مشاركة هؤلاء فى الحياة العامة أخذت تتضاءل وليس من تقاليد الحكم السعودى أن يميز هذه الأسرة ، اى أسرة الشيخ ، بصفتها ذات مركز دينى يختلف عن أى أسرة أخرى تتمسك بأهداب الشريعة . وإذا كان محمد بن عبد الوهاب قد ترك فى التاريخ السياسى أثراً كبيراً يفوق ما كان ابن تيميه يتمناه لنفسه ، فإنه من الناحية العقلية البحتة يأتى متخلفاً بكثير عن العالم الحنبلى الشهير . ولا يمكن القول بأن محمد بن عبد الوهاب صاحب مذهب متكامل فى الفقه أو علم الكلام ، وانما تقتصر كتاباته على رسائل قصيرة وتتسم بطابع الوعظ الأدبى ويتخللها كثير من الآيات والأحاديث ، إلى حد أن تصبح أحياناً مجرد جمع للنصوص . ولذلك فإن الباحث فى تفاصيل الدعوة السلفية لابد أن يعتمد قبل كل شىء على تلاميذ الشيخ ، وأكثرهم كما ذكرنا من بين أولاده وأحفاده .

وأشهر هؤلاء هو عبد الرحمن بن حسن الذى عاصر حملة إبراهيم باشا فى نجد وأخذ أسيراً فى القاهرة حيث أكمل تعليمه فى الأزهر . وحمل معه مكتبة نفيسة إلى نجد حين عاد إليها سنة ١٢٤٥ هجرية بعد تأسيس الدولة السعودية الثانية . وكذلك لابد من ذكر إبنه عبد اللطيف بن عبد الرحمن الذى عاصر الخلافات الداخلية فى الدولة السعودية الثانية وشاهد اندثار هذه الدولة ، بما كان له أكبر الأثر فى اعتناقه لمبادىء متشددة . لأننا نعتقد أن الأحوال السياسية التى تبدلت طوال الحكم السعودى قد أثرت على طبيعة الدعوة الدينية .

وفى العصر الحديث يشتهر فى نجد سليمان بن سحمان بكثرة رسائله وتعدد الموضوعات التى تناولها بما فى ذلك المشاكل الكلامية التى كان يتحرز

سابقوة عن الخوض فيها . وقد جمعت رسائل علماء الوهابيين ومؤلفاتهم فى مجموعتين كبيرتين نشرت المجموعة الأولى فى القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ. فى أربع مجلدات باسم (مجموعة الرسائل والمسائل النجدية) وقد نشرتها مطبعة المنار التى كانت تعمل لنشر مبادىء الإصلاح الدينى فى مصر فى الوقت الذى انتشرت فيه الدعاية ضد هذا الإصلاح بواسطة الأسرة الهاشميه . وهى حينئذ على خصومة شديدة مع السعوديين الذين أخرجوهم من حكم الحجاز سنة ١٩٢٦ ميلادية . أما المجموعة الثانية فهى تحتوى على نفس المواد ولكنها مرتبة على حسب الموضوعات وتعرف باسم الدرر السنية فى الأجوبة النجديه وقد نشرت بمكه سنة ١٣٥١ هجريه .

خصائص الدعوة السلفية :

سبق أن ذكرنا أن الوهابيين يسمون أنفسهم بالموحدين وليس فى عقيدة التوحيد ما يميز فرقة اسلامية عن أخرى . إذ أن أساس الإسلام نفسه هو الإيمان بوحدانية الله . ولكن تصور هذه الوحدانية قد يختلف من جماعة إلى أخرى ، فالمعتزلة كانوا يسمون أنفسهم بالموحدين ولكن التوحيد عندهم هو الإعتقاد بوحدة ذات الله مع صفاته . ويدعو كذلك كثير من المتصوفة إلى الوحدانية ، ولكنهم يقصدون بها وحدة الوجود ، بحيث لايتميز خالق الكون عن الكون نفسه ، أما الوهابيون فلا يعنيهم البحث عن طبيعة الذات والصفات كما هو الحال بالنسبة للمعتزله وينكرون على المتصوفة عقيدتهم هذه فى الوحدانية . وعندهم أن الوحدانية التى تكون العنصر الأساسى للدين الإسلامى هى الوحدانية التى تترتب على سلوك الموحد وهو ما يسمونه بوحدانية الربوبية ، أى أن المؤمن لايكون موحداً الا إذا قصر عبادته على كائن واحد ، وهى غير وحدانية الألوهية التى هى الإعتقاد بوجود إله واحد .

ولما كانت العبادة تشمل فى رأى الوهابيين جميع مظاهر التبجيل مثل

الدعاء والاستغاثه فان تصرف الغالبية العظمى من المسلمين حينئذ نحو الأولياء، بل والنبي نفسه يمكن وصفه — فى رأى الوهابيين — بأنه عمل مخالف للتوحيد أو يمكن وصفه بالشرك . ولو أن الوهابيين ينفون عن أنفسهم أتهام غالبية المسلمين بالشرك ، إلا أن تاريخهم فى الفترة الأولى ، يدل على أنهم برروا سياستهم القائمة على محاربة جميع الدول الإسلاميه المجاوره بهذا التسلسل المنطق الذى يؤدى إلى وصف عدد كبير من المسلمين بالشرك . ومعروف إلى أى حد كان العامة يتعلقون بأشخاص الأولياء ومقابرهم حتى عصر قريب جداً . ومن الأسباب التى قدمها الوهابيون لأثبات كفر بعض الجماعات الإسلاميه إهمال كثير من المسلمين فى ذلك الوقت لتأدية الفرائض الدينيه . وهم فى ذلك لايختلفون عن كثير من الفقهاء المعترف بهم ، إلا أنهم أختصوا بمحاولة إخراج هذه المبادىء إلى حيز التطبيق العملى ، ومع ذلك لانجد أمثلة فى تاريخهم تدل على أنهم قتلوا شخصاً معينا لامتناعه عن تأدية الصلاة مثلا .

والمشكلة الثانية التى اثارت جدلا بين الوهابيين وخصومهم تتعلق بموضوع أصول الفقه . فقد أراد دعاة الإصلاح الدينى أن يرجع الفقهاء والقضاة إلى المصادر الأصلية رأساً وهى عندهم ثلاثة أبواب : القرآن ، والحديث ، واجماع المسلمين على حكم معين إلى آخر القرن الثالث الهجرى . ويترتب على هذا أن يكون لجميع الدارسين المعترف بهم حق الأجتهاد فى الفقه وهو حق كان محظوراً استعماله منذ زمن طويل ، كما تعارف عليه فقهاء العصور المتأخرة . وقد ذهب الوهابيون فى إطلاق هذا الحق إلى أنهم دعوا إلى عدم التقيد بمذهب من المذاهب الأربعة المعروفه ، وانما يجوز لكل قاض أن يأخذ من أى مذهب مايرى أنه أقرب إلى النصوص المقدسه الأولى ، ولم يبيحوا التقليد الا عند العجز عن الرجوع إلى هذه النصوص .

ولكن عند التطبيق العملى تبين أن القضاة يصدرون أحكاماً متفاوتة فى الحالات المتشابهة ، ولذلك أصدر الملك عبد العزيز آل سعود

سنة ١٣٤٥ هجرية مرسوماً بالزام القضاة اتباع المذهب الحنبلى . ثم اتبع ذلك بمرسوم آخر حدد فيه للمحاكم السعودية المراجع التى يجب على القضاة التقيد بها ومعظمها من بين مؤلفات الفقهاء المتأخرين[1] مثل كتاب منتهى الايرادات لموسى الحجاوى المتوفى سنة ٩٦٣ هجرية .

أما مسائل الخلاف التقليدية التى كانت مثار الفرقه بين المذاهب الإسلامية المختلفه كمسألة الذات والصفات والجبر والإختيار فإن الوهابيين ينكرون التحدث فيها ، ولم يهتموا بمناقشة الفرق التى أختفت كهيئة قائمة مثل المعتزلة والمرجئه الخ . لذلك احتدم النزاع بينهم وبين الفرق التى ظلت تلعب دوراً إجتماعياً وسياسيا فى العالم الإسلامى حتى قيام الوهابيين . وأعنى بهذه الفرق المتصوفة اولا والشيعه ثانيا . ولم يقف الخصومة بين هؤلاء عند مجرد المجادلات النظرية بل تجاوزتها إلى القتال المسلح ، فقد تعمد الوهابيون مثلا الغارة على مدينة كربلاء فى العراق سنة ١٨٠٢ ميلاديه ، وانتقموا هناك من علماء الشيعه وحملوا نفائس قبر الحسين إلى نجد معتقدين انهم فعلوا ذلك جهاداً فى سبيل الله .

وقد اشتهر الوهابيون ببعض المبادىء الطهرية مثل تحريم الدخان ولبس الحرير والذهب ، لكن مثل هذه المبادىء ليست أساساً فى المذهب بعكس ما يشيع بين الناس ، فمثلا لم يحرموا شرب الدخان لتعنت أو تصلب فى الدين كما يشيع الخصوم . ولكن كما يذكر الوهابيون أنفسهم لأن شرب التنباك بكثرة قد يسكر . وقد وصف بيلى أحد الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر دخان بلاد العرب بأنه أقوى ثلاثين مرة من دخان فرجينيا ، مما يجعلنا ننظر إلى قول الوهابيين دون الإحساس بالسخرية .

وليست آراء الوهابيين قاصرة على الأمور الدينية البحته بل لعل أهم ما أكتشفناه فى مجموع تعاليمهم هو ما يمكن تسميته بالآراء السياسية الدينية

---

(١) أنظر البلاد العربية السعودية لفؤاد حمزه ص ١٨٩ وما بعدها .

فقد كان الوهابيون أول من دعا إلى فكرة العروبه فى العصر الحديث ، وأن لم تكن الفكرة قائمة على أساس قومى بقدر ماكانت قائمة على أساس دينى ، فقد صرحوا بأن العرب أفضل من الترك ، ولكن على أساس أن الترك أقل أتباعاً لتعاليم الإسلام من العرب(١) . وكذلك قالوا أن مكة تحت الحكم التركى تعتبر من بلاد الكفر . وأن العثمانيين أغتصبوا الخلافه وأنها إن وجدت فالعرب أحق بها .

على أن سياسة الدولة السعودية الأولى تثبت أنه كان هناك فكرة أولية عن معنى القومية ، لاقومية نجدية أولا ، ثم تطورت إلى فكرة قومية عربية . والعرب فى مفهوم السعوديين الأوائل كانوا هم سكان شبه جزيرة العرب دون بلاد الشام أو مصر ، رغم أن أهلها يتكلمون العربية . فهو مفهوم قائم على الوحدة الجنسية . ويدل على هذه السياسة أنهم كانوا منذ قيامهم من الدرعية بحركة التوسع يتوقون إلى توحيد نجد تحت حكمهم ، فلما تم لهم ذلك أصبحت نجد أشبه بوطن للدعوة الوهابية ، بحيث كان الوصف بنجدى يعنى الوصف بوهابى فى كثير من الأحيان . وقد رأينا أن الرسائل الوهابية تعرف بإسم الرسائل النجدية .

فلما أتسع سلطان السعوديين وشمل معظم الجزيرة العربية ، وأصبحت الدولة العثمانية هى خصمهم الأول رأينا هذه القومية المحلية تتحول إلى فكرة قومية عربية بمعنى أوسع من نجد ، ونتيجة لهذا نلاحظ أن كثيراً من قبائل الشام والعراق قد رحبت بالحكم السعودى لأحساسها بأن هناك وحدة جنسية ولغوية تجمع بينها وبين الدولة العربية الناشئة .

وقد تصور الوهابيون أن الأمة الإسلامية هى مجموعة المدن والقبائل التى خضعت للحكم السعودى ولذلك نجد من أغرب الآراء السياسية الدينية تلك التى تتعلق بموضوع انتقال السكان إلى خارج المنطقة التابعة للدولة .

---

(١) انظر الدرر السنية ج ١ ص ١٥٠ .

فبينما يلزم الوهابيون اتباعهم الذين آمنوا بالدعوة بترك ديارهم إذا كانت واقعة خارج الحكم السعودى إلى داخل حدود الدولة ، ويسمون ذلك بالهجرة الواجبة، نجد أنهم يحرمون الإنتقال من داخل الدولة إلى المناطق الواقعة خارج حدودها لغير غرض التجارة وقد شهد الرحالة برخارد[1] وهو خير من كتب عن الوهابيين وتاريخهم بأن الوهابيين ينفذون هذه القاعدة .

ويعتبر الوهابيون من أشهر الناس تمسكاً بضرورة قيام إمامة للأمة الإسلامية . والإمامة عندهم غير الخلافة ، فهى لاتتضمن صفه العموم بالنسبة للعالم الإسلامى ، والخلافة العامة لم تدم فى رأى الوهابيين أكثر من ثلاثين سنة . ثم تحولت الرئاسة فى عهد عثمان بن عفان إلى مُلكٍ . ومنذ ذلك التاريخ يمكن الإعتراف بعدة أئمة فى وقت واحد . ولا يشترط فى الإمام النسب القُرشى كما هو الحال بالنسبة للخلافة . ولما كانت الإمامة ضرورة جماعية للمحافظة على مصلحة الجماعة الإسلامية فإن الوهابيين يقبلون جميع الوسائل التى يستطيع بها الإمام أن يقر الحكم فى الجماعة ، سواء أكانت هذه الوسائل قائمة على البيعة أو التوارث أو تعيين الإمام لخليفته أو حتى استعمال القوة ، وهو مايسميه الوهابيون القهر . وكما يعتقد الوهابيون بوجوب الطاعة على الأمة فإنهم كذلك يجعلون نصيحة الأمام واجبة على كل فرد يحس فى نفسه القدرة على ذلك[2] .

التاريخ السياسى في الجزيرة العربية :

لعل قيام دولة موحدة فى الجزيرة العربية ، هى أهم النتائج التى ترتبت على دعوة الإصلاح الدينى أوكما قلنا من قبل ، أن الجانب السياسى للحركة

---

(١) زار هذا الرحالة السويسرى بلاد العرب سنة ١٨١٤ م . ونشر كتابه .
Notes on the bedouins and Wahabis. London 1829.

(٢) يعتبر كتاب « توضيح الحلاق فى الرد على أهل العراق » . لسليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب أهم مرجع للآراء السياسية .

الوهابية هو الذى يعطيها الأهمية الظاهرة فى التاريخ الإسلامى الحديث، اكثر مما يكسبها الجانب الدينى . فمنذ انتقال مركز الخلافة من داخل بلاد العرب إلى الشام والعراق فى القرن الأول الهجرى ظلت هذه المنطقة خاضعة للمنازعات القبلية إلى أن وحدتها فى أواخر القرن الثامن عشر الدولة السعودية الأولى . وقد مر تاريخ السعوديين بثلاثة أدوار رئيسية :

الدور الأول :

من ١٧٤٤ إلى ١٨١٨ — ويعتبر اتفاق محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود فى الدرعية سنة ١٧٤٤ إيذانا لمولد الدولة الجديدة . ويروى لنا الألوسى[1] كيفية وقوع الاتفاق بين الرجلين : فيبين أن محمد بن عبد الوهاب تنبأ منذ ذلك الوقت لابن سعود بملك نجد بأسره ويقول (فلما تحقق محمد بن سعود من المصالح الدينية والدنيوية مد يده إلى الشيخ مبايعا) وقد واجه أمير الدرعية أقصى مرحلة فى تاريخ السعوديين أثناء محاولة توحيد نجد تحت حكمه إذ أن كل واحة من واحاتها كانت تعتبر وحدة سياسية مستقلة هذا بالنسبة للحضر ، أما البدو فكانوا يتبعون النظام القبلى ولا يخضعون لأى سلطة سياسية . وكان على محمد بن سعود أن يحتل جميع الواحات احتلالا عسكرياً من جهة ، وأن يضطر القبائل البادية إلى الاعتراف بسيادته من جهة أخرى .

وإذا عرفنا أن واحة الرياض وهى من أكبر واحات نجد فى ذلك الوقت ظلت تقاوم غزوات أمير الدرعية مدة ثلاثين سنة ، أدركنا إلى أى حد واجه بن سعود عقبات عسيرة . لذلك لم يتم توحيد نجد إلا فى عهد ابنه عبد العزيز سنة ١٧٨٦ ميلادية أو سنة ١٢٠٠ هجرية . أى بعد أكثر من أربعين سنة منذ مبايعة محمد بن عبد الوهاب فى الدرعية .

لم تتنبه الدولة العثمانية إلى خطورة الحركة الناشئة إلا بعد أن تمت

---

(١) تاريخ نجد الحنبلى ص ١١٠ ، ١١١ .

المرحلة الأولى فى توحيد بلاد نجد . واستأنف السعوديون توسعهم شرقا فى إقليم الأحساء وغرباً فى إقليم الحجاز . ذلك أنه رغم وقوع بلاد العرب بأسرها نظريا تحت السيادة العثمانية إلا أن السلطة الفعلية للحكومة المركزية لم تتجاوز يوما ما الأماكن المقدسة فى الحجاز ، وبعض مدن الأحساء الكبيرة . مثل الحفوف ، وموانىء الخليج الفارسى . وعندما بدأ السعوديون بمهاجمة مدن الأحساء ، كانت الحكومة العثمانية قد تركت إدارتها لقبيلة عربية قوية ، هى قبيلة بنى خالد وجعلتها تحت إشراف والى بغداد .

ومع ذلك فقد ترك الوالى رؤساء بنى خالد يتولون الدفاع بأنفسهم عن الأحساء ، إلى أن بسط الوهابيون نفوذهم عليها ، وأقاموا حاميات فى مدنها وأخضعوا القبائل البحرية التى تسكن سواحل الخليج الفارسى . وكانت أول حملة وجهها العثمانيون ضد الدولة العربية الجديدة هى تلك التى جهزها والى بغداد سليمان باشا سنة ١٧٩٧ ميلادية . فنزلت فى ميناء القطيف وتقدمت حتى مدينة المبرز وهنا واجه العثمانيون صعوبة حرب الصحراء ، إذ لم يتمكنوا من تموين جيوشهم وراء خطوط طويلة وثبت عجزهم عن القيام بأى حصار طويل للمدن السعودية . وعلى أثر فشل هذه الحملة بدأ الوهابيون يطمعون فى الزحف على جنوب العراق ، وشجعهم على ذلك أن القبائل النازلة فى هذه المنطقة كانت على نزاع دائم مع والى بغداد إلى حد أن هذا الوالى فكر سنة ١٧٩٩ م فى عقد صلح مع السعوديين حتى يضمن مرور قوافل الحج من العراق إلى الحجاز عبر نجد .

ولكن المشكلة كانت أكبر من مجرد السماح لمرور قوافل الحجاج . فإن الأماكن المقدسة نفسها كانت مهددة بالاحتلال السعودى لأن شريف مكة صاحب السلطة الفعلية بالحجاز كان يتولى وحده الدفاع عنها . وكانت سياسة الشريف القائم حينئذ وهو غالب بن سرور تبعد القبائل الحجازية عن صداقته لأنه كان شحيحا ولا يشركها فيما يحصله من الأرباح الوفيرة التى تحققها له مواسم الحج . لذلك بعد أن انضمت هذه القبائل إلى الحكومة

السعودية تمكن سعود بن عبد العزيز من دخول مكة فاتحا سنة ١٨٠٣ م ، (١٢١٨ هجرية) . وكان ذلك صفعة قوية فى وجه الحكومة العثمانية أمام العالم الإسلامى إذ ثبت عجزها عن تأدية وظائفها كحكومة للخلافة الإسلامية عليها واجب تأمين طرق الحج .

وقد ترتب على استيلاء السعوديين على الحجاز ، أن انقطعت قوافل الحج من مصر والشام وأنحاء العالم الإسلامى المختلفة لأن السعوديين فى ذلك الوقت كانوا يعتبرون سكان هذه البلاد التى لم تدخل فى حكمهم من المشركين أو على الأصح كان أهل هذه البلاد غير مستعدين لاحترام قواعد الإصلاح الدينى أثناء قيامهم بشعائر الحج . ولذلك لم يسمح لهم السعوديون بالدخول إلى الأماكن المقدسة مما كلف أهل الحجاز خسارة مادية علاوة على انقطاع المساعدات التى كانت تصلهم من الأوقاف فى الولايات العثمانية .

والحق أن الدولة السعودية الأولى قد أثارت بتصرفها هذا غضب العالم الإسلامى وإن كان لعدائها للدولة العثمانية ما يبرره . ومن الواضح مثلا أنه كان من المستحيل السماح لقوافل الحج العثمانية الرسمية بالدخول إلى البلاد السعوديه ، فى الوقت الذى كانت فيه الدولتان فى حالة حرب مستمرة . وقد وصلت الدولة السعودية أوج عظمتها سنة ١٨١٠ ميلادية حين امتد نفوذها على بادية العراق والشام . ويذكر لنا قناصل الدول الغربية فى بغداد وحلب ، أن القبائل التى تسكن حول هذه المدن كانت تخضع للسعوديين وأن سكانها كثيراً ما روعوا بذيوع أنباء عن غزو السعوديين المرتقب لبغداد أو دمشق أو حلب . ومما زاد فى خطورة الحركة السعودية بالنسبة للعثمانيين أنها لم تكن مجرد ثورة سياسية على الحكم العثمانى كما اعتادت الأستانة فى ثورات الباشوات ولكنها كانت حركة دينية تنكر على العثمانيين سلطتهم الشرعية .

ولم تكن الدولة العثمانية هى الدولة الكبرى الوحيدة التى احتكت بها

الدولة السعودية الأولى . فإنه بعد أن وطد السعوديون سلطتهم على سواحل الخليج الفارسى وانضمت لهم القبائل التى كانت تعيش من القرصنة البحرية . أصبحوا هم المنظمين لهذه الأعمال البحرية التى تجيزها تقاليد ذلك العصر . ولوحظ أنه بعد أن أحست القبائل باستنادها إلى دولة قوية كالدولة السعوديه تشجعت على مهاجمة السفن البريطانية التى تتردد على مياه الخليج . وكانت من قبل تخشى العالم البريطانى وتقصر قرصنتها على السفن العربيه التابعة للبحرين أو مسقط . بل واستطاعت أن توسع من ميدان نشاطها ، فيسجل لنا مؤرخ البحرية الهنديه لو (Law) أن القبائل التابعة للوهابيين هاجمت سنة ١٨١٨ ميلاديه سفينه بريطانية على بعدستين ميلا من ميناء بومباى . وقد ترتب على هذا أن قام الأنجليز بأول حملة بحرية فى الخليج الفارسى سنة ١٨٠٩ م . ثم وطدوا نفوذهم بحملة أخرى سنة ١٨١٩ م وذلك بأن تحالفوا مع الأمارات التى كانت تخشى ابتلاع السعوديين لها ، وخاصة أمارات مسقط والبحرين والكويت . ويبدو أنه فى الوقت الذي بدأ فيه محمد على حملته الكبرى ضد السعوديين من الغرب لم تخف وطأة الأعمال البحرية فى الشرق ضد الأنجليز كما يدل تاريخ البحرية الهندية .

ومن المعروف أن محمد على قد حقق ما عجز عنه ولاة دمشق وبغداد من القضاء على الدولة السعودية الأولى بالحملات المتعددة التى استمرت سبع سنوات من سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٨ م . والتى كلفت الشعب المصرى كثيراً من التضحيات فى المال والرجال . ولو قرأنا المؤرخ المصرى المعاصر عبد الرحمن الجبرتى .. للاحظنا أن قسما من الرأى العام المصرى كان يعطف على حركة الأصلاح الدينى . ويفضل الوهابيين على الأتراك والألبانيين الذين يضطهدون هذا الشعب[1] . وإذا كان محمد على قد نجح فى القضاء على السعوديين كسلطة سياسية ، فإنه فشل تماماً فى التقليل من نفوذ الدعوة الدينيه التى كان السعوديون رمزاً لها على الأقل فى أقليم نجد . لذلك ما كاد

(١) تاريخ الجبرتى ج ٤ ص ٢٤٥ .

يخلى هذا الأقليم سنة ١٨١٩ حتى تهيأت الظروف لقيام دوله سعودية جديدة .

الدور الثانى :

ظلت الدولة السعودية الثانية محصورة فى أقليم نجد ولم تستطع استعادة نفوذ الدولة الأولى لعاملين :

أولا : أن محمد على لم يكف عن محاولاته لبسط سيطرته على الجزيرة العربية . حتى سنة ١٨٤٠ م .

وثانيا : لوقوع خلافات عنيفه بين أعضاء الأسرة على تولى الحكم بعد وفاة الشخصية الكبيرة فى هذا الدور وهى شخصية فيصل بن تركى سنة ١٨٦٧ م .

وعندما أسس تركى بن عبد الله هذه الدولة سنة ١٨٢٢ م كانت الدرعية قد حطمت . فاتخذ من الرياض عاصمة لحكمه واستطاع أن يستولى على الأحساء فترة قصيرة . وقد بدأت هذه الدولة تضعف بشكل واضح بعد وقوع النزاع بين عبد الله وسعود بن فيصل . والتجاء سعود إلى الأتراك لمعاونته مما شجع هؤلاء على أرسال حملات إلى بلاد العرب سنة ١٨٧٠ م . وتحويل الدولة السعودية من دولة مستقلة إلى أمارة تابعة للسيادة العثمانية . إذ أصبح سعود بن فيصل متصرفا من قبل العثمانيين على أقليم نجد . وعندما حاول أخوه عبد الله الانفصال عن الدولة العثمانية . عجز عن مواجهة آل الرشيد الذين كانوا يتولون شمال نجد من قبل العثمانيين أيضا . وبمعاونة الاتراك استطاعوا أن يقضوا على الحكم السعودى من نجد سنة ١٨٩٢ م .

الدور الثالث :

عندما قام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بغارته الشهيرة على الرياض سنة ١٩٠١ م ، كانت الاسرة السعودية تعيش لاجئه عند أمير

الكويت مبارك الصباح . ولذلك يعد بناء المملكة السعودية الحديثه ثمرة لكفاح الملك عبد العزيز الشخصى . ولعل هذا ما أثار أعجاب معظم المؤلفين الذين كتبواعنه باللغة العربية أو باللغات الأجنبيه ، وهم ليسوا بقليل . ولا نستطيع أن نتتبع ادوار نضال الملك عبد العزيز لأعادة بناءحكم السعوديين فى نفس الحدود التى بلغتها الدولة السعودية الأولى . ويكفى أن نشير إلى أنه أتم هذا العمل فى خمس وعشرين سنة مابين سنة ١٩٠١ ، سنة ١٩٢٦ ميلادية .

وقد كان عبد العزيز معرضا للوقوع فى الأخطاء التى وقعت الدولة الأولى فيها وهى الأخطاء التى اثارت عليها الدول المجاورة . وفى ذلك الوقت كان الإنجليز قد حلوا محل الدولة العثمانية فى السيطرة على العراق وشرق الأردن بالإضافة إلى أمارات الخليج . فقد كانوا فى الحقيقه هم الحائل المادى الذى أوقف حركة التوسع السعودى فى القرن العشرين . ولما كان الملك عبد العزيز قد اعتمد فى بناء ملكه على نفوذ دعوة الإصلاح الدينى بين سكان نجد فقد كان عليه أن يحافظ على تعاليم الدعوة كما رأيناها فى القسم السابق . أى أنه كان ملزما بصفته إماماً ، بنشر الدعوة بالقوة فى جميع الأقطار الإسلامية المجاورة . أو على الأقل ، فى عدم التعاون معها لأنها لاتلتزم بتعاليم الإصلاح الدينى .

وقد كان هناك فعلا تيار قوى يضغط عليه لاتباع هذه السياسة . وتمثل هذا التيار فيما يعرف بجماعة الأخوان وهم البدو الذين أقام لهم عبد العزيز قرى زراعيه بعد أن قام بحفر آبار ارتوازية فى نجد وشمال الحجاز وشجعهم بأسم الإصلاح على ترك حياة البداوة والإستقرار فى هذه القرى الزراعيه . وقد بلغت هذه القرى حسب تعداد جريدة أم القرى سنة ١٩٢٦ م مائتى قرية تضم نحو ثلث سكان نجد . وكان الإخوان بمثابة الجيش العامل فى خدمة الملك فبفضلهم استطاع فتح الحجاز سنة ١٩٢٥ م . وعسير فيما بعد .
وكان الأخوان يريدون إملاء سياستهم التى ترمى إلى غزو العراق والكويت

على الملك . دون مراعاة أو فهم للظروف الدولية الجديدة . فلما حاول عبد العزيز منعهم من التمادى فى هذه الأعمال العدوانية . أعلنوا خروجهم عليه . ولولا أنه استعان بوسائل الحرب الحديثة . لما استطاع القضاء على ثورتهم الهائلة سنة ١٩٣٠ م . ويمكن القول انه بعد اختفاء حركة الإخوان ضعفت أهمية الحركة الوهابية كعامل دينى يؤثر فى سياسة الحكومة السعودية . وانحصر نفوذها فى ميدانى القضاء والتعليم . إذ ما زالت كتب بن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية فى المملكة العربية السعودية .

أثر حركة الاصلاح السلفى خارج بلاد العرب

فوت دعاة الإصلاح على أنفسهم فرصة الدعاية لمبادئهم حين قررت الدولة السعودية الأولى قفل الأماكن المقدسة أمام الحجاج من الأقطار الإسلامية الأخرى . مع أنه فى الحالات القليلة التى سمحت فيها بدخول قوافل حجاج أجنبية أثار نظام الوهابيين إعجاب الوافدين من الأقطار البعيدة كما حدث سنة ١٨١٠ م بالنسبه لقافلة المغرب التى كان يرأسها ولى عهد المغرب .

وللباحث أن يتساءل هل قامت الحركات السلفية القوية فى أواخر القرن التاسع عشر كنتيجة مباشرة للدعوة الوهابية ، أم انه تصادف قيامها نظراً لوقوع المسلمين تحت تهديد الأطماع الأوربية ، ومحاولتهم إحياء الروح الدينية القوية حيث غابت عنهم فكرة القومية بالمعنى الإقليمى الحديث . وإذا أخذنا تاريخ حركة الاصلاح الدينى فى الهند وهو أشهر مثل لهذه الحركات السلفية التى حملت اسم الوهابية صراحة . فإننا نستطيع أن نؤكد أن قيام هذه الحركات المختلفة كانت وليدة الظروف الجديدة المحيطة بالعالم الإسلامى دون أن يكون هناك بالضرورة علاقة أخذ من حركة بلاد العرب مباشرة .

فقد بدأ سيد أحمد ، الذى ينسب إليه تأسيس الحركة الوهابية فى الهند ، كفاحه سنة ١٨٢٦ م . كزعيم حركة سياسية بحته تهدف إلى إحياء الحكم الإسلامى على أثر تصدع دولة المغول الإسلامية الكبيرة فى الهند . ولم يكن سيد أحمد هو الذى تزعم المسلمين لملء الفراغ الجديد وإنما اختص بالمنطقة الشمالية الغربية من جزيرة الهند حيث كان المسلمون واقعين تحت تهديد خطرين : الأول من جهة الغزاة الأجانب أو الإنجليز والثانى من جهة السيخ الذين أسسوا دولة قوية فى إقليم البنجاب .

ولم يعرف عن سيد أحمد أنه اتصل بدعاة الإصلاح الدينى فى الجزيرة العربية وحتما قام بفريضة الحج كان ذلك عام سنة ١٨١٨ م أى بعد أن أخرج الوهابيون من الحجاز . وقد ظل أنصار سيد أحمد يعرفون باسم المجاهدين ولم يشتهروا بشىء من تعاليم الدولة السلفية سوى أنهم دعوا إلى فتح باب الاجتهاد . ونلاحظ أن أنصار سيد أحمد أشاعوا بعد وفاته مبدأ عودة الإمام المنتظر وهو مبدأ شيعى يبتعد تماماً عن روح الحركة السلفية العربية . ولكن حدث فيما بعد اتصال بين علماء نجد وعلماء الهند وخاصة سكان الإقليم الشمالى الغربى وكشمير حيث بقيت ثورة سيد أحمد قائمة ضد الحكم البريطانى حتى سنة ١٨٨٠ م ، وقد قدم كثير من سكان هذه المنطقة إلى المحاكمة أمام المحاكم البريطانية بتهمة انتمائهم إلى « الثوار الوهابيين » .

ومما يثبت الاتصال الفكرى بين الحركات السلفية أن كثيراً من كتب الوهابيين وابن تيمية طبعت فى الهند أواخر القرن التاسع عشر وذلك قبل أن يضطلع السيد رشيد رضا بهذه المهمة فى مصر ، وقبل أن يمتلك السعوديون للمرة الأولى مطبعة حديثة سنة ١٩٢٦ م ويعرف السلفيون الآن فى الهند باسم « جماعة أهل الحديث » .

ومما يستحق الملاحظة أن الحركة السلفية فى شمال أفريقيا ارتبطت أيضاً ارتباطاً وثيقاً بالحركات القومية الموجهة ضد الاستعمار الفرنسى. وقد عرفت

السلفية أولا فى أواخر القرن التاسع عشر بفضل الحملة التى شنها محمد بن العربى العلوى أحد علماء فاس على الطرق الصوفية . ومن المعروف أن لهذه الطرق نفوذاً كبيراً جداً فى شمال أفريقيا . وكان من نتائج ذلك أن قرر مولاى عبد الحفيظ ، الذى تولى الحكم فى مراكش سنة ١٩٠٧ م ، إقفال زوايا الطريقة الكتانية حين أكتشف أن مشايخ هذه الطريقة يتآمرون مع الفرنسيين . فكان على السلفيين أن يناضلوا ضد عدوين فى شمال أفريقيا : وهما رجال الطرق من ناحية والغزاة الأجانب من ناحية أخرى . فضلا عن أن هذين العدوين كانا متحالفين لا فى شمال أفريقيا وحدها بل فى جميع الأقطار الإسلامية الأخرى .

وللحركة السلفية يرجع الفضل فى إحياء القومية الجزائرية : فقد كان الزعماء الجزائريون بعد طول الانقطاع عن العالم الإسلامى وثقافته مترددين فى اختيار الأسس التى تبنى عليها القومية الجزائرية . وذهب بعضهم إلى حد إنكار وجود هذه الأسس أصلا ، فكان علماء الدين الذين تثقفوا فى الشرق الإسلامى على يد دعاة السلفية فى مصر والشام والحجاز هم الذين حافظوا على التراث العربى الإسلامى للجزائر ، بعد أن كاد ينمحى أثره تماماً أزاء محاولات فرنسة الجزائر .

وفى سنة ١٩٢٩م . أسس عبد الحميد بن باديس جماعة العلماء الجزائريين. وقد اقتصر عملها فى الفترة الأولى على نشر مبادىء الإصلاح الدينى ومحاربة رجال الطرق ورغم هذا فقد تخوفت السلطات الفرنسية من نشاطهم الدينى والثقافى . وتصدت لمقاومتهم فأصدرت السلطات الفرنسية وهى المهيمنة على الشئون الدينية فى الجزائر منشورا سنة ١٩٣٣ م ، يحرّم على (الوهابيين) الخطابة الدينية فى مساجد الدولة . ويبدو أن السلطات

فى الهند أو الجزائر ، هى التى كانت تتعمد وصف السلفيين بالوهابية تنفيرا للرأى الإسلامى منهم ، خاصة وأن خصوم السعوديين السياسيين قد أشاعوا فى ذلك الوقت كثيراً من الدعاية ضد (الفرقة الوهابية المارقة) . وقد ترتب على موقف الفرنسيين هذا أن تحولت جماعة العلماء الجزائريين من هيئة دينية خالصة إلى حركة قومية ، كان لها فضل إعادة وصل الجزائر بشقيقاتها الدول العربية والإسلامية .

صلاح الدين العقاد